لـكى تعيش ...!!

للأســـتاذ م دراج

أليس عجيباً أن يتعارض المنطق مع القانون ؟ إن منطق الحياة ليقول : الحياة تبرر نفسها ! ولـكن القانون لا يخضع دائماً لمثل هذا القول ! « الحياة تبرر نفسها » منطق عجيب حقاً ينسف دعائم الجريمة والعقاب ، ومع ذلك فالقانون باق ، وسنة الحياة لا تتغير ! أجل ... إن القانون يثـور على المجرمين ، ولـكنه لا يفهم لمـاذا أجرموا ؟ يصليهم العذاب فى أركان مظلمة يسميها « دور التأديب والإصلاح » ! ولـكن هذه الدور تزداد دائماً ، وتتسع ، وتكتظ ، ومع ذلك يصر على أنها ليست للأفساد ، لسبب الانحطاط فى طبقة ما من الأمة ، ويتعلل بتدهور أخلاقها ، ثم ينبنى التفسير الصحيح لهـذا التدهور ، وكيف تسببت أعراضه وتفاقمت ، لأنه لا يريد أن يقول : إنه الجوع أو الجهل ، أو الحرمان أو الفقر بمعنى أقرب وأوضح ...

هذه هى القصة ، قصة المرأة التى خلقت التاريخ ، وبقيت المحور الذى تدور عليه حوادث العالم حتى اليوم ... رأيتها بالأمس تسير الهوينا إلى جانب الطريق : تتصفح الوجوه صفحة صفحة بعينين لهما منطق مفضوح ! لقد طال سيرها على غير هدى ، حتى كاد التعب يهوى بفرعها إلى الأرض ، فأسندت ظهرها إلى جذع شجرة عتيقة كمن يريد انتظار شىء معلوم ... فوقفت على بعد منها ، لأنى لمحت على وجهها سمة التضليل واضحة ، ولم يخف عنى أنها تنتظر المجهول ... المجهول الذى يقودها من هذه السوق التى أقامتها مدنية القرن العشرين لتجارة الرق المشروعة ، فماذا رأيت ؟ رأيت قطعة من جسم الإنسانية ، تتمرغ فى الوحل ، والناس يطربون لهذا المنظر البشع ، ويتهافتون على مشاهدته ، فبعضهم من ذوى « الرؤوس البيضاء » كانوا يرمقونها بنظرة التهكم والسخرية ؛ أما البعض الآخر فمن ذوى الشعور اللامعة والحواجب المزججة ، فإنهم يصارعونها النظرات أولاً ثم يفتشون فى مظهر النديين ، ثم يهبطون بأنظارهم حتى قدميها ، وكثيراً ما كان بعضهم يتعمد المرور من ورائها ليطمئن إلى حكمه الأخير ! وهم لا يكفون عن اللف والدوران ، وكأنهم جيوش من النحل تطوف حول زهرة من أزهار الربيع ... إن منظرها على هذا

الوضع ليضايقنى ويثير فىّ غيرة لا أعرف مصدرها ، لعلها الثورة على الإنسانة القليلة ، أو لعلها الأنانية التي لا يخلو من بعضها كائن بشرى ... ووجدتنى مضطراً إلى الابتعاد ، فقد كان يؤلمنى أن أكون أحد المتحفزين للدخول فى صفقة كهذه . ولم أكد أبتعد خطوتين ، حتى أعود فألقى عليها نظرة أخيرة ، فأجد سيارة ضخمة لها طنين العظمة والـكبرياء تتباطأ رويداً رويداً ، ثم تقف عن الحركة ، ويتحرك بابها ، ولا ينزل منه أحد ... لقد حجبت عنى هذه السيارة منظر الفتاة ، فقفزت كذلك خطوتين إلى الأمام حتى وضح لى أنها تحدق فى داخلها ، ثم تتقدم ببعض الشىء ، وخيل إلىّ أنها تسأل عن الثمن ... وأخيراً تقفز إلى جوار السائق وتندفع السيارة بصيدها الحرام ، مخلفة وراءها عثاراً مشيماً بدخان العظمة والـكبرياء ...

ويضيق صدرى ، فأمشى مسلوب العاطفة والفكر معاً . أمشى أنا أيضاً على غير هدى ، هنا وهناك لا ألوى على شىء . وفجأة أسمع طنيناً يعيد إلى صوابى ، فأدرك أن حياتى كانت معرضة للخطر ، كنت مهدداً بالفناء من هذه السيارة الماجنة ، فقد وقفت منى على بعد أمتار . وألقت صيدها المذبوح إلى الطريق! وعلى غير وعى منى أتبع خطواتها ، فهى تسير فى نفس الاتجاه الذى يصل بى إلى مسكنى . ولـكنى لا آبه بالوقت ، ولا بحاجتى إلى الراحة ، وأتابع السير وراءها حتى تعرج على دكانة تبيع « سمكا مشوياً » ثم إلى بائع الخبز فتبتاع منه حاجتها ... وتواصل السير وأنا أتبعها ... لقد اندفعت اندفاعاً غريباً لأعرف شيئاً عن قصتها . سلـكت شوارع مظلمة ، وحارات ، ودروباً ما كنت أتصور أن القاهرة ، هذه المدينة الجميلة الضاحكة ... ذات القصور والفنادق والملاهي والأحياء التى تضارع أرقى العواصم فى الغرب ، هذه المدينة التى يسمونها كذباً وتضليلاً عروس الشرق ، تضم هذه البادات القذرة ، تلك التى لا تجد لها مثيلاً بين زنوج أفريقيا أو بلاد نيام نيام أو أى أرض شئت

وأخيراً أراها تحيى أمها العجوز ، وتنحدر إلى باب مسكنها الغائر فى بطن الجبل . فأتذكر المرأة التى أمر بها كل يوم وهى جالسة إلى صندوق القمامة تفتش فيه جاهدة عن شىء يؤكل ، والرجل الذى تسلل إلى فضلات طعام إحدى الفرق للمسكرة ، فأرداه الجندى صريعاً بالرصاص . والفلاح الذى يأكل الحشائش من الأرض كالحيوان . والعامل الذى يضطره الجوع أن يسرق

قطعة من « العجوة » ليبلع بها رغيفه ... كل أولاء كهذه المرأة هم فى العذر والحاجة سواء . لقد فقدوا كل إحساس لأنهم جياع فما يهمهم عرف ولا قانون . وهل فى عداد القوانين التى تنظم حياة المجتمع قانون واحد يجنب الفقير عواقب الشطط ! ! آه ... لقد تذكرت ! هناك السجون ! وهل رأيت فى السجون إلا فقيراً أو محروماً أو مطروداً ؟ هـذه السجون بنيت لفريق واحد من الناس ، وليس هذا الفريق من الأغنياء !

وعدت إلى دارى مهموم القلب ، يحتـدم بينى وبين نفسى عراك عنيف : إنها ساقطة ... بنى ... عاهرة تفسد فى الأرض . أثور ، وهى تهدئنى : « ألا تدرى أن صفقة كهذه لا غبار عليها ، مادام الخمر والجوع هما وسيطاها ! إن الخمر والجوع كليهما كأس يشمل شاربها . فكل كأس من الخمر لها رصيد من العرق أو الدموع ! فلم لا ترى مثل هذا يحدث على الشاطئ الغربى من النيل . . . حيث تقوم القصور الشاهقة مطلة على الأكواخ والكهوف . لا محل للأسطورة القديمة التى كانوا يسمونها الفضائل ، والشرف ، والكرامة ، والمروءة ! كل هـذه أكاذيب قد عفت منـذ زمن بعيد . إن الإنسانية تتقدم ، وتتطور ، دائماً ، دائماً ، حتى فى تجارة الرقيق ، ولكنها تجارة منظمة . أجل تجارة منظمة تتفق وأسلوب القرن العشرين ...

لا ياصاحبى ، إنهـا إنسانة لا بد لها من القوت لتعيش . ومن يدرى ؟ ربما أعيتها الحيل فى البحث عنه ، أذلتها الحاجة . والجواب بغير ثمن ليس من طبيعة هذا العصر ، ولا من تعاليمه . فما الكرامة ، وما الشرف ، وما العرض ، أمام الحاجة الملحة للطعام ؟ وما دمنا قد رضينا أن يحيا كل إنسان لنفسه ، فليس لك أن تلوم المرأة العاطلة ، التى لا عائل لها ولا قانون يحميها ، إذا انغمست فى الظلام تفتش عن شىء أعياها البحث عنه فى النور . إن لغة العطف والرحمة لم تعد من مصطلحات هذا الزمن . فالرجل القادر على أن يمنح العطف والرحمة فى شكل كسرة تمسك الرمق أو ثوب يستر الجسد قد طغت عليه تكاليف المدنية ، فهو يرى أن « جالوناً » من البنزين لسيارته ، أو كأساً من الشراب يذهب بصوابه ، أو حفلة ساهرة ترمى إلى عظمته ، أحق وأولى من معونة لا يطالبه بها القانون ، ولا تعترف بوجوبها الدولة !

صدقنى إذا قلت لك : إن يد المدنية الحديثة قد قلبت صفحة الزمن ، فطوت معها كل أثر للفضائل فى العهد القديم . نحن الآن أمام صفحة جديدة ، تختلف فى تعاليمها ومراميها ، وليس من معانيها شىء اسمه الرحمة !!

إن القوة الآليـة التى جعلت الثروة تتركز فى يد عدد قليل من الناس ، وتتزايد بأرقام مخيفة ، هى بعينها التى سلبت الكثرة الهائلة الزر الضئيل الذى بيدها حتى باتت تبحث عن الرغيف فلا تجده . فالزيادة المطردة فى جانب ، والنقص المستمر فى جانب ، قد أوجدا ميزاناً عجيباً تعلو فيه كفة إلى السماء ، وتهبط أخرى حتى تلاصق الأرض . وليس القبّ الذى يرفع هـذا الميزان هو توراة « موسى » ولا إنجيل « عيسى » ، ولا هو القرآن الذى بلغه « محمد » ، كما أن صنجاته ليست من المروءة أو الكرم أو الزهد ، ولكنها من نوع آخر تبيحه المدنية وتشجعه ، من الغش ، والطمع ، والمكر ، والاستغلال الشنيع الذى لا يصده حتى عرض فتاة مسكينة تتضور جوعاً !

فكيف إذن تطلب من امرأة ضعيفة جائعة محرومة من شريعة الدين وشريعة المدنية ، أن تفهم معنى الكرامة والشرف وقداسة العرض فى هذا المترك الضال ؟ الإنسان ظل للنظام الذى يعيش فيه ، فكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟

كيف ؟ كيف ؟ لم يعجبنى دفاع نفسى عن البغى . رأيت فيه دفاعاً عاطفياً لا يجوز على العقل ، فاختلفنا ، واتفقنا أن تقدم « الرسالة » هذه القضية .

م . وراج

وزارة الدفاع الوطنى

إعلان

تقبـل عطاءات لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ١٢ مارس سنة ١٩٤٢ عن توريد اللحوم اللازمة للجيش والشروط بقسم المشتريات والعقود ٩٠٦٦